تفسير السنة للمتشابه في الآيات والسور

١ ـ مقدمة عن تفسير السنة ـ للتشابه بين الآيات في جملتها وتفصيلها .
٢ ـ الأسلوب العملي في تفسير السنة للتشابه في آيات القرآن .
٣ ـ الأسلوب الوصفي لتفسير السنة للتشابه في آيات القرآن .

١ ـ مقدمة عن تفسير السنة للتشابه بين الآيات في جملتها وتفصيلها :

من الحدود الفاصلة بين كلام الله وكلام البشر ، أننا نجد كل كلمة في القرآن كله ، تعمل من خلال تقدير إلهي ، لأنواع صيغها ، وتقدير إلهي لعدد مواضعها .

بل إن بداية كل آية ونهايتها ، وبداية كل سورة ونهايتها ، لا يتم أي منهما بلا تقدير أو نظام دقيق كما هو الشأن في كلام البشر ، وإنما يدلنا ترتيب الآيات والسور ، على أن البدايات والنهايات تعمل عمل

للأستاذ : محمد العفيفي

الجسور التي تتنقل عليها الذاكرة الانسانية ، بين مواضع أجزاء الآيات ، وقد تنوعت ارتباطاتها ، وأمدتنا بمزيد من وجوه العلم مع كل جديد من مواضعها في الآيات والسور .

فمهما نتنكر من أجزاء الآيات في مواضعها في القرآن كله ، فنحن في وجوه علمية تترابط بترتيب معجز ونظام دقيق لا ينبغي أن يناله أي تحريف أو تبديل .

والعقل البشري يستوعب هذه الحقائق بالأسلوب العملي التطبيقي ، اكثر مما يستوعبها بالأسلوب النظري الوصفي ، لذلك جاءت أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم بالأسلوبين السابقين معا في بيان هذه الحقيقة .

وقد كانت كلمة التشابه هي الكلمة المستفادة من بيان القرآن والسنة لهذه الظاهرة القرآنية .

وسننظر الى تفسير السنة لهذه الظاهرة من خلال الأسلوب العملي أولا ، ثم يتبع ذلك الأسلوب النظري .

٢ ـ الأسلوب العملي في تفسير السنة للتشابه في آيات القرآن :

يروى مسلم في صحيحه عن أبي عمرو جرير بن عبد الله رضي الله عنه حديثا طويلا جاء فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب عندما رأى جماعة من المسلمين في عسر وفاقة فتلا قوله تعالى :

(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا) . النساء/١

ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر خطبته هذه قوله تعالى :

(يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) الحشر/١٨

لقد حض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أصحابه على البذل والانفاق ، ليسدوا خلل هؤلاء الفقراء ، من إخوانهم ، فتلا عليهم آيتين من سورتين .

فأما السورة الأولى فهي سورة النساء ..

وقد احتوت الآية الأولى التي قرأها منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على قصة البشر ، في فترات تاريخهم جميعا ، فاذا هم جنس واحد ، لا يختلف في حقائقه الأساسية ، مهما

تتفرق بأفراده الأمكنة والأزمنة .

فهكذا يشعرون بحاجتهم إلى أن يتراحموا وأن يتقوا الله في هذه الرحم الماسة ، والعاطفة الانسانية الكريمة .

وأما السورة الثانية فهي سورة الحشر ..

وقد احتوت الآية التي قرأها منها الرسول صلى الله عليه وسلم ، على واجب كل فرد من الناس ، أن يقدم لنفسه ما ينفعه في الآخرة ، التي هي آتية حتما بدليل هذه الحركة المتصلة ، في هذه الحياة الدنيا ، كما يقول الله تعالى :

(ولتنظر نفس ما قدمت لغد) .

لنتأمل كيف كان اسم السورة الأولى سورة النساء . ومنهن يكون الولد ، بينما كان اسم السورة الثانية الحشر ، وهو المصير النهائي لمن ولدوا جميعا .

وهذه الظاهرة من عجائب القرآن التي نجدها في أسماء سوره ، كما نجدها في ترتيبها في المصحف .

فاذا كانت هاتان الآيتان اللتان فسر الرسول بهما هذا الموقف التاريخي الاجتماعي الاقتصادي ، قد تشابه شكلهما ومضمونهما ، وتنوع عطاؤهما ، وتم هذا التمام ، فان هذا كله يعود إلى حقيقة عملية أساسية ، هي تعدد المواضع بالكثير من حروف هاتين الآيتين ، وبالكثير مما نجد بهما من الكلمات والجمل .

*** مع الحروف متعددة المواضع :**

لقد جاء حرف الواو في مواضع متعددة من الآية الأولى من سورة النساء ، كما نجده بقوله تعالى :

١ ــ وخلق منها زوجها .

وقوله : **٢ ــ وبث منهما رجالا كثيرا .**

وقوله : **٣ ــ ونساء .**

وقوله : **٤ ــ واتقوا الله الذي تساءلون به .**

وقوله : **٥ ــ والأرحام .**

وواضح أن حرف الواو ، حرف واحد في ذاته ولكنه يتحرك في مواضعه ، حركة متجددة دائما ، يبينها لنا ما يتنوع من مشاهده ، ويكثر من مقاصده ، كلما نظرنا في مواضعه المتعددة ، في هذه الآية أو في القرآن كله .

أولا ــ هناك خلق الزوج :

(وخلق منها زوجها) .

ثانيا ــ هناك بث الكثير من الرجال :

(وبث منهما رجالا كثيرا)

ثالثا ــ هناك بث الكثير من النساء :

(ونساء) .

رابعا ــ هناك الأمر بتقوى الله :

(واتقوا الله)

خامسا ــ هناك الأمر بتقوى الله في أرحامنا :

(والأرحام)

ويطرد هذا التنوع والتجدد ، في المقاصد التي يرتبط بها حرف الواو في الآية السابقة الذكر ، من سورة الحشر ، ثم في آيات القرآن كله .

ففي الآية الثامنة عشرة من سورة الحشر ، يتصل حرف الواو بقوله تعالى :

١ ـ (**ولتنظر نفس ما قدمت لغد**)
وهذا مقصد جديد ، اذا قسناه بالمقاصد السابقة ، التي وصلنا بها حرف الواو ، في الآية الأولى من سورة النساء .

*** مع الجمل المتعددة المواضع :**
وقد يظن بعض الناس أن حرف الواو متصل بقوله تعالى : (**واتقوا الله**) بكل من الآيتين السابقتين فليس هناك من جديد في ذلك .
وهذا الظن غير صحيح ..
ذلك أن قوله تعالى بالآية الأولى من سورة النساء :
(**واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام .**)
ثم قوله تعالى بالآية الثامنة عشرة من سورة الحشر :
(**واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون**)
قد ارتبط به حرف الواو بجملة واحدة هي قوله تعالى :
(**واتقوا الله**)
ولكن هذه الجملة ارتبطت بموضعين لها بكل موضع منهما عمل جديد .
فأما عملها بالموضع الأول : فهو أنها وصلتنا بتقوى الله في أرحامنا كما يقول الله تعالى :
(**واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام**) النساء/١
وأما عملها بالموضع الثاني : فهو أنها وصلتنا بتقوى الله في أعمالنا كما يقول الله تعالى :
(**واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون**) الحشر/١٨

*** مع الكلمة المتعددة المواضع :**
ومثل ذلك نجده في الكلمة القرآنية إذا تعددت مواضعها كما ننظر في كلمة (**يأيها**) في موضعيها بالآيتين السابقتين فنجدها بالآية الأولى من سورة النساء هكذا :
١ ـ (**يأيها الناس اتقوا ربكم**)
ثم نجدها بالآية الثامنة عشرة من سورة الحشر هكذا :
٢ ـ (**يأيها الذين آمنوا اتقوا الله**)
والأمر حين يوجه للناس جميعا ، ثم يوجه للذين آمنوا ، يدلنا على أنه أمر واحد في ذاته ، وإن تنوعت أحوال البشر ، من حيث حاجتهم إليه . فالذين آمنوا لهم حقيقة خاصة بهم ، تخرجهم من الناس جميعا قبل أن يؤمن منهم ، من آمن ..
وهذا يفسر لنا لماذا جاءت كلمة **يأيها** بهذين الموضعين السابقين ، اللذين ارتبطت معهما بمشهدين متنوعين ، لا بد لنا أن ننظر فيهما معا . لنحصل من كل منهما على ما فيه من العلم .
فلم يكن أمرا عابرا ـ إذن ـ أن تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هاتين الآيتين المتشابهتين بصفة خاصة ، ليفسر بهما هذا الموقف الاقتصادي الذي لا يخلو منه زمان ولا مكان في حياة البشر .
ولقد تضمن هذا التفسير إظهارا للمنهج الذي يعلمنا كيف ننظر في أجزاء الآيات ، وكيف تترابط في مواضعها الكثيرة لتمدنا بمعلومات

متجددة .

والغاية من هذا المنهج ، تقوم على تطبيق القرآن في جملته وتفصيله ، على الواقع العملي لحياتنا ، في جملتها وتفصيلها . أما الطريق إليه فهو تعليم الرسول إيانا ، كيف ننظر في تركيب القرآن ، وهو سر إعجازه ، ومناط الحدود الفاصلة بين كلام الله وكلام البشر ، لنحتكم إليه في كل كثير أو قليل من أمور حياتنا .

وهذا التفسير الذي يقدم لنا الرسول منهجه العملي ، يبين لنا كذلك عظمة الارتباط . أنه تطبيق عملي لمنهج القرآن ، في إصلاح المجتمعات الانسانية كلها ، بكل مكان وزمان .

٣ ـ الأسلوب الوصفي لتفسير السنة للتشابه في آيات القرآن :

بين الله لنا في آيات قرآنية كثيرة الأصول العامة للتشابه ، في أجزاء وحيه وأجزاء خلقه .

فلما كان المقصود بالكلام هنا هو بيان التشابه في آيات القرآن ، فاننا ننظر في قوله تعالى :

(**الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني**) الزمر/٢٣

وهذه الآية تبين لنا أجزاء الآيات القرآنية من حيث تراسلها فيما بينها كما نجد الآيات مرتبة في السور . وكما نجد السور مرتبة في المصحف . لذلك قال الله تعالى : (**متشابها مثاني**) أي تتشابه علينا أجزاء الآيات كلما نظرنا في مواضعها فتتجدد لنا المشاهد التي تحملها لنا ارتباطاتها المتنوعة . لأهداف كثيرة لا نحيط بعلمها ، ومنها أن العقل لا يستطيع أن يحيط بكل المقاصد المتشابهة وإنما ينكر ما مضى منها بما حضر في أثناء التلاوة . أو البحث في الأشباه والنظائر . لذلك جاء قوله تعالى : (**متشابها مثاني**) لنفهم هذه الحالة بصفة خاصة ، بين ما لا نحيط بعلمه من مراد الله في هذه الآية .

وكذلك يقول الله تعالى :

(**هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الألباب**) آل عمران/٧ .

وهذه الآية تجمع لنا كل أحوال التتابع ، في أثناء تلاوتنا للآيات ، وأجزائها ، ومواضعها ، ومواضع أجزائها ، في القرآن كله .

وآيات القرآن منها ما هو بموضع واحد مثل كل آيات القرآن باستثناء الآيات المتعددة المواضع كقوله تعالى : (**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر**) جاءت متعددة المواضع بسورة القمر . وكقوله تعالى : (**فبأي آلاء ربكما تكذبان**) جاءت متعددة بسورة الرحمن .

ونحن نعرف كلا من هذين النوعين بقياسه بالنوع الآخر .

انظر ـ مثلا ـ بمواضع قوله تعالى (**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من**

مذكر) نجدها تربطنا مع كل موضع جديد ، بمشهد جديد عن أمة من الامم التي بادت في فترات متتابعة من التاريخ .

فهكذا نعلم أن هذه الآية ثابتة في نصها ولكنها متجددة في حركتها وعملها وارتباطاتها وكذلك النظام الواحد للنبات والحركة بكل آيات الله الكونية ، وكل آياته القرآنية .

ثم إن آيات القرآن بنوعيها السابقين تتراسل أجزاؤها فيما بينها ، فكلما تعددت مواضع حرف أو كلمة أو جملة أقل من آية ، في الآيات والسور ، تنوعت ارتباطاتها ، وكثرت مشاهدها المتفقة من حيث الكم مع عدد مواضع كل من ذلك ، والمتجددة من حيث التنوع بحكم ما تتحرك بنا المشاهد التي تتسع أمامنا كلما واصلنا التلاوة .

لذلك قال الله تعالى : **(منه آيات محكمات)** أي جاءت بجملتها متنوعة من حيث الأفراد أو التعدد في مواضعها بسور القرآن كله .

فان كانت الآية بتمامها ذات موضع واحد ، فهي محكمة على أساس إفراد موضعها وتوحيده .

أما إن كانت الآية متعددة المواضع ، فهي محكمة كذلك ـ بحكم ارتباطها في سياقها من كل موضع جديد ، بمشهد جديد ، يتفرد بذاته لأنه يحمل مشهدا خاصا به ، بين المشاهد المتنوعة التي تحملها مواضع هذه الآية ، إذا نظرنا إلى هذه المواضع في جملتها .

إن العقل البشري لا يستطيع أن يكتشف هذا التفرد ، الذي توصف به الآية ذات الموضع الواحد ، أو التفرد الذي توصف به الآية المتعددة المواضع ، بحكم اختصاصها بمشهدها الجديد المتصل بسياقه من كل موضع ، إلا إذا انفردنا بكل آية على حدة ، في أثناء التلاوة .

لذلك قال الله تعالى : **(منه آيات محكمات هن أم الكتاب)** ثم قال تعالى : **(وأخر متشابهات)** ليشمل ذلك كل أحوال النظر في كل آية بذاتها ، وفي كل جزء من أجزاء الآيات بذاته ، لأن هذا كله يصدق عليه التفرد من حيث النص أو من حيث الموضع ، ولا يقدر على هذا الوصف القرآني ، الذي يشمل كل ما هو عام وما هو خاص ، إلا الله تعالى .

وهكذا يتبين لنا أنه لا تناقض بين قوله تعالى :

(كتاب أحكمت آياته ثم فصلت) هود / ١

وبين قوله تعالى : **(منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات)** آل عمران / ٧

ذلك أن الآية الأولى من سورة هود ، تبين لنا أحكام الآيات وتفصيلها ، من حيث حقيقتها الذاتية . بينما الآية السابعة من سورة آل عمران تبين لنا حالة التتابع في القراءة بكل ما فيها من ظهور الأحكام ، أو خفائه ، وما يتصل بهذا الخفاء من تشابه .

ولذلك قال الله تعالى : **(فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما**

تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله) آل عمران / ٧

وهذا يدلنا في بعض معانيه على انقطاع الذين في قلوبهم زيغ عن النظر إلى ما هو عام من النصوص والمواضع ، اجتزاء بما هو خاص منها ، وذلك بأن يحصروا المطلوب من المواضع الكثيرة لكلمة واحدة ، في موضع واحد من مواضعها .

وهنا يحدث التعميم الخاطئ ، بينما الصواب هو النظر في الأحكام والتشابه ، أو الوحدة والتنوع لقياس الأشباه والنظائر بوجه عام ، واختصاص كل نص بما يخصه من معناه في ذاته ، وفي كل موضع بما يرتبط به من وجوه العلم الكثيرة ، ثم ترتيبها في معرفتنا ووجودنا .

لذلك قال الله تعالى : (**فيتبعون ما تشابه منه**) ليبين الخطأ في تعميم الجزء على الكل بغير حق ، دون أن يجمعوا دائما بين ما هو عام وما هو خاص من المعاني .

ثم قال : (**وما يعلم تأويله إلا الله**) أي إن الله وحده هو الذي يحيط علما بكل هذه المشاهد الكثيرة المتنوعة في جملتها وتفصيلها .

ثم قال : (**والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا**)

وهنا نعلم أن الاحاطة البشرية بكل ما في القرآن من وجوه العلم ، إنما هو أمر فوق طاقة البشر . فلذلك كان من تفسير السنة للقرآن ، بيان حدود قدرتنا على فهمه ، وبيان أن علينا أن نأخذ منه بقدر استطاعة كل منا .

ومما يؤكد ذلك كله أن هذه الآية قد ختمها الله بقوله : (**وما يذكر إلا أولو الألباب**) أي ان قياس الأشباه والنظائر يقوم على التذكر ، فبقدر ما يكون التذكر قويا نشطا ، يكون الفهم والاستيعاب متجددا يخص كل وجه من العلم بما يخصه من الفهم ، ولن يستطيع الانسان مهما تكن قوة تذكره ، أن يحيط بكل ما في كلام الله من وجوه العلم .

ويفسر الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الآية بقوله لعائشة رضي الله عنها :

« فاذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم » رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذي .. فقوله صلى الله عليه وسلم : « فاذا رأيت » فيه الربط بين الفرد والجماعة .

وقوله : « فاحذروهم » فيه دعوة الأمة كلها إلى الحذر من كل من يعمم الجزء على الكل في الآيات وأجزائها ، دون أن يفهم سر الاتصال والحركة المتجددة التي تخص كل نص بما يخصه ، من المعنى والتنوع من حيث ارتباطه بمشاهده الكثيرة ، في الآيات والسور . لذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « فاذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه » ، أي يعممون الجزء على الكل ، ولا يتحركون مع مقتضيات التقدم ، والتجديد ، في معاني القرآن ، فهؤلاء الذين سمي الله فاحذروهم .

ولذلك نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن اختلاف الناس في المعاني ،

لأن منشأ الاختلاف هو انقطاع كل أحد برأيه المبني على جزء واحد من النصوص أو المواضع ، دون أن تتصل الرؤية لتقيس الأشباه والنظائر بوجه عام ، ثم تخص كل نص وكل موضع بما يخصه ، من وجوه العلم الكثيرة ، في جملتها المرتبة في العقل ، المطبقة في العمل .

ولقد سمع الرسول صلى الله عليه وسلم رجلين اختلفا في آية فعرف في وجهه الغضب وقال : « إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب » رواه مسلم .

ذلك أن الاختلاف ـ كما سبق بيان ذلك ـ منشؤه دائما ، انقطاع كل أحد برأيه المرتبط بنص بذاته أو موضع بذاته ، وانما الصواب هو الحركة المتجددة ، التي تنظر في المواضع بوجه عام ، ثم تخص كلا منها بما خصه الله من المقاصد ، بقدر الاستطاعة ، مع التسليم بأن ما كان من فهمنا صوابا ، فمن الله ، وما كان قاصرا عن إدراك الصواب ، فمن العجز البشري .

ويؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الحركة المتجددة ، بقوله عندما سئل عن أحب العمل إلى الله :

قال : الحال المرتحل

قيل : وما الحال المرتحل يا رسول الله ؟

قال : الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره كلما حل ارتحل » رواه الترمذي .

وهذا الحديث يدل متنه على صحته ، ذلك أن فيه تعميما في قوله صلى الله عليه وسلم : « الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره » وهذا التعميم فيه معنى الحركة التي تتقدم باستمرار ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم قال بعد ذلك : « كلما حل ارتحل » وفي هذا بيان لسر الحركة ، وهو الثبات . فلولا ثبات كل نص على مبناه ومعناه ، وما خصه الله به من المواضع ، ما أحسسنا بالحركة التي تتجدد في هداها في أثناء التلاوة .

ومن روائع هذا الحديث الربط بين القارئ وبين القرآن حيث قال صلى الله عليه وسلم : « الحال المرتحل » .

ذلك أن « الحال » هو الذي يندمج مع ما في كل قول قرآني من ثباته على نصه ، وجملة مواضعه .

وأما المرتحل فهو الذي يندمج مع الحركة المتجددة ، التي تحتوي عليها كل الآيات والسور .

وهكذا نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يبين لنا الأحكام والتشابه ، بالأسلوب العملي الذي يؤكد لنا ما سبق بيانه من أنه لا تعارض إطلاقا بين قوله تعالى :

(كتاب أحكمت آياته ثم فصلت) هود/١

وقوله :

(منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) آل عمران/٧

ذلك أن الآية الأولى تحدثنا عن القرآن في ذاته . أما الآية الثانية فهي تحدثنا عن حالة التتابع ، التي نحس بها ونحن نواصل القراءة ، حالين ومرتحلين .